

الفصل الثاني

بيت المقدس قبل الرسالة الخاتمة

- عهد إبراهيم عليه السلام والأرض المقدسة.
- عهد أبناء إبراهيم عليه السلام.
- عهد موسى عليه السلام.
- عهد يوشع عليه السلام.
- عهد داود وسليمان عليهما السلام.
- عهد يحيى وزكريا عليهما السلام.
- عهد عيسى عليه السلام.
- عهد الزوال.



الهيكل القديم قبل الإسلام

بيت المقدس قبل الرسالة الخاتمة

المعركة الفاصلة بيننا وبين اليهود حاضراً ومستقبلاً هي معركة دينية عقائدية، ولقد قُدر لأرض المسجد الأقصى وما حولها أن تكون ميداناً لهذه المعركة، ولتجلية الحقائق عن الموقف اليهودي الطامع في هذه الأرض وفي مكان المسجد؛ لا بد من دراسة متأنية تكشف الخلفيات التاريخية والدينية التي دفعت اليهود إلى جعل هذه الأرض محط أطماعهم، ومهوى أفئدتهم منذ عصور قديمة وحتى عصرنا هذا.

وحتى يسهل استيعاب الحقيقة القائلة بأن المعركة بيننا وبين اليهود معركة عقائدية؛ لا بد لنا من استشفاف الدروس من خلال صفحات التاريخ عندما وعندهم؛ فإن ذلك قمين^(*) بأن يرفع الغشاوة عن أعين العميان الذين يُصرون على فهم القضية من خلال أوراق ليست هي أوراقها.

وإن ذلك أيضاً كفيلاً بأن يفصل ويرسخ فهم المدركين لفحوى القضية إجمالاً، ولنفتح الملف لنغوص في البحث والتأمل؛ ولكن لا بد أولاً من ذكر بعض الإيضاحات الهامة.

أولاً: المدينة المقدسة:

لمدينة بيت المقدس أسماء كثيرة في التاريخ، فأقدم اسم لها هو (يبوس) نسبة إلى (اليبوسيين) وهم بطن من العرب الأوائل، واليبوسيون هم الذين أطلقوا

(*) قمين، أي جديرٌ وحري.

الفصل الثاني

عليها أيضاً: «أورسالم» أي مدينة السلام، وقد ورد هذا الاسم في لوحة من ألواح (تل العمارنة)، موجودة في المتحف المصري بالقاهرة، ويرجع تاريخ هذه الألواح إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أي قبل دخول العبرانيين^(١) إلى فلسطين. وقد تطورت هذه التسمية الكنعانية والآرامية في اللغة العبرية إلى «أورشليم».

وعند الفتح الإسلامي للمدينة المقدسة كان اسمها (إيلياء) أو (إيليا). وورد هذا الاسم في وثيقة الأمان التي أعطاها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لسكان المدينة. أما سبب هذه التسمية (إيلياء)؛ فإن الرومان عندما غزوا أرض فلسطين عمد الإمبراطور الروماني (إيلوس هدریان) إلى إكمال ما بدأه (طيطس) من هدم المدينة والمسجد، وأجلى عنها اليهود وأقام مكان المعبد هيكلاً^(٢) لوثن الرومان (جوبيتر) وهو كبير آلهتهم، ووضع في المعبد تمثالاً لهذا الإله المزعوم كالتمثال الذي في معبد (الكابيتول) الروماني، وقرر الإمبراطور (إيلوس هدریان) محو وتغيير كل أثر لليهودية في المدينة المقدسة حتى اسمها؛ فإنه اختار اسماً جديداً يتكون من كلمتين إحداهما مأخوذة من اسمه هو (إيلوس)، والثانية من اسم معبد الرومان (كابيتول)، فأصبح اسم المدينة (إليا كابيتولينا). ويقال: إن معنى (إيليا) بيت الله^(٣).

ثم استقر اسم المدينة بعد الفتح الإسلامي على تسمية عربية إسلامية هي بيت

(١) العبرانيون: اسم أطلق على إبراهيم - عليه السلام - ومن كانوا معه عندما هاجروا من العراق إلى الشام عابرين نهر الفرات.

(٢) الهيكل: اسم يطلق على المكان الذي يُعبد فيه وتذبح فيه القرابين في الديانات السابقة على الإسلام.

(٣) انظر (أهمية القدس في الإسلام)، عبد الحميد السائح ص ١١، و(موسوعة اليهود واليهودية) للدكتور عبد الوهاب المسيري، (٤/ ١٠٥).

المقدس أو القدس، أو الأرض المقدسة، أو الأرض المباركة وهي تسميات ثابتة في القرآن والسنة.

موقع المدينة المقدسة:

تقع القدس في منتصف فلسطين تقريباً، على خط طول خمس وثلاثين درجة وثلاث عشرة دقيقة شرقي (جريتش)، وخط عرض إحدى وثلاثين درجة وأربعين دقيقة شمالاً.

وهي تقع على تلال يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر ما بين سبعمائة وعشرين إلى ثمانية وثلاثين متراً، وهي - في خطوط مستقيمة - تبعد عن البحر المتوسط اثنين وخمسين كيلو متراً، وعن البحر الميت اثنين وعشرين كيلو متراً وعن البحر الأحمر مائتين وخمسين كيلو متراً.

وتبعد بالطرق المعبدة عن عمان ثمانية وثمانين كيلو متراً، وعن بيروت ثلاثمائة وثمانين كيلو متراً، وعن دمشق مائتين وتسعين كيلو متراً، وعن القاهرة خمسمائة وثمانية وعشرين كيلو متراً.

وتنقسم المدينة إلى قسمين، قسم داخل السور، وهو البلدة القديمة ومساحتها تقريباً كيلومتر مربع واحد، وتقع فيها الأماكن المقدسة عند الأديان الثلاثة، والقسم الآخر خارج السور^(١).

والقدس من أقدم مدن الأرض، وهي أقدم من بابل ونيوى، وليس أقدم منها إلا (أون) أو (أيوتو)^(٢) أولى عواصم مصر في فجر التاريخ، و(منف) أو (ممنفيس) ثاني عواصم مصر التي أنشئت ٣٤٠٠ ق. م.

(١) (تاريخ القدس) د. شفيق جاسر، ص ٢٠، (دار البشير للنشر والتوزيع - عمان).

(٢) هي (عين شمس) الآن بالقاهرة.

ثانياً: المسجد الأقصى:

المسجد الأقصى هو ثاني مسجد بناه إبراهيم عليه السلام كما يفهم ذلك من حديث النبي ﷺ، ففي الصحيحين من حديث أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - قال: «قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال المسجد الحرام، قلت ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت كم بينهما؟ قال: أربعون سنة»^(١)، فهذا الحديث يدل على أن المسجد الأقصى قد بناه إبراهيم - عليه السلام -؛ لأنه حدد بمدة هي من حياة إبراهيم عليه السلام، وقد قرن ذكره بذكر المسجد الحرام الذي بناه إبراهيم عليه السلام أيضاً، وهذا مما أهمل أهل الكتاب ذكره، وهو مما خص الله نبينا ﷺ بمعرفته^(٢).

والمسجد الأقصى يُعرف أيضاً ببيت المقدس. ومعنى الأقصى: أي الأبعد، والمراد بعده عن مكة بقرينة جعله نهاية الإسراء من المسجد الحرام، وقد ثبتت له هذه التسمية بنص القرآن في أول سورة الإسراء، قال - تعالى -: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وهذا الوصف جاء للتنبيه على معجزة الإسراء وكونه خارقاً للعادة؛ حيث قُطعت فيه مسافة طويلة في بعض ليلة.

وبهذا الوصف الوارد في القرآن صار مجموع الوصف والموصوف علماً بالغلبة على مسجد بيت المقدس، كما كان المسجد الحرام علماً بالغلبة على مسجد

(١) أخرجه أحمد (١٥٠/٥)، وأخرجه البخاري (٦٠) كتاب أحاديث الأنبياء (١٠)، رقم

(٣٣٦٦)، و(٤٠) باب قول الله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ رقم (٣٤٢٥)، وأخرجه

مسلم (٣٧٠/١)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم (١، ٢) واللفظ له.

(٢) انظر تفسير (التحرير والتنوير)، لمحمد الطاهر بن عاشور، (١٥/١٤)، الدار التونسية للنشر.

مكة . قال ابن عاشور : «وأحسب أن هذا العلم من مبتكرات القرآن ، فلم يكن العرب يصفونه بهذا الوصف ، ولكنهم لما سمعوا هذه الآية فهموا المراد منه أنه مسجد إيلياء ، ولم يكن مسجد لدين إلهي غير هذا المسجد ومسجد مكة»^(١) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن حادثة الإسراء حينما وقعت لم يكن المسجد الأقصى ببناءه موجوداً ، كما أن مسجد الصخرة المعروف الآن لم يكن موجوداً كذلك ، وإنما الذي كان موجوداً هو مكان المسجد المحاط بسور فيه أبواب ، داخلها ساحات واسعة ، وهذا هو المقصود من المسجد الأقصى في الآية الكريمة ، إذ إن الإسلام قد جاء والمسجد قد اندرس بناؤه ، ولكن ظل المكان معروفاً ومقدساً .

وأحاديث الإسراء تدل على أنه أُسري بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس راكباً البراق بصحبة جبريل عليه السلام ، فنزل وصلى بالأنبياء إماماً وربط البراق بباب المسجد أي باب السور الخارجي . وحائط البراق هو الحائط الذي يسميه اليهود الآن بحائط المبكى ؛ إذ إنهم يعتبرونه أحد أسوار الهيكل القديم والأثر الوحيد الباقي منه بعد هدمه الثاني ، وهو بالقرب من باب المسجد الذي يفتح على الساحة^(٢) ؛ ومما يدل على ذلك أنه عندما حضر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين فتح بيت المقدس ، استشار كعب الأحمار - الذي كان يهودياً وأسلم - وقال له : أين أضع المسجد؟ فقال كعب : اجعله وراء الصخرة . فقال : ضاهيت اليهودية يا كعب ؛ بل نجعله في صدر المسجد^(٣) . يقصد الساحة ، وذكر ابن كثير ، أن عمر قال لكعب : «أين ترى أن أصلي؟ قال : إن أخذت عني صليت

(١) التحرير والتنوير (١٥ / ١٥) .

(٢) انظر (أهمية القدس في الإسلام) ، عبد الحميد السائح ص ٤٦ .

(٣) تاريخ الطبري (٧ / ٥٦١) ، والبداية والنهاية ، (٦٠ / ٧) .

الفصل الثاني

خلف الصخرة، وكانت القدس كلها بين يديك . فقال عمر : ضاهيت اليهودية، لا ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ، فتقدم إلى القبلة فصلى»^(١) .

أما المسجد الأقصى على صورته القائمة اليوم فهو إنما بُني في عهد الأمويين فقد بدأ بناءه الخليفة عبد الملك بن مروان (٧٣ - ٨٦ هـ)، وأتم بناءه ابنه الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) .

والمؤرخون والعلماء إنما أطلقوا (المسجد الأقصى) على جميع ما دار عليه السور وفيه الأبواب، وهو الذي كان معروفاً عند الإسرائاء والمعراج ويشمل : المسجد المعروف الآن، ومسجد الصخرة المشرفة، وجميع الساحات المحيطة بها^(٢) .

وتبين من ذلك أن المسجد الأقصى الذي وقع الإسرائاء إليه والمقصود من الآية الكريمة هو ما دار عليه السور، وهو المقصود من الأحاديث الواردة في فضل زيارته ومضاعفة أجر الصلاة فيه .

أما التسمية القديمة عند أهل الكتاب لهذا المسجد العتيق فهي (الهيكل)، وهي تسميةٌ التصقت أكثر باسم سليمان - عليه السلام - فقيل : (هيكل سليمان)؛ لأنه أقامه على أحسن الهيئات التي بُني عليها .

ثالثاً: مسجد الصخرة المشرفة:

للصخرة المشرفة تاريخ ديني عريق، فهي قبلة الأنبياء منذ زمان موسى - عليه السلام - وحتى بداية عهد نبينا محمد ﷺ حيث صلى إليها ستة عشر شهراً، وعند

(١) قال ابن كثير عن إسناد هذا الأثر : «وهذا إسناد جيد، اختاره الحافظ ضياء الدين المقدسي في كتابه المستخرج، وقد تكلمنا على رجاله في كتابنا الذي أفردناه في مسند عمر»، البداية والنهاية، (٦٠ / ٧) .

(٢) (أهمية القدس في الإسلام)، عبد الحميد السائح ص ٤٧ .

الصخرة اتخذ إبراهيم - عليه السلام - معبداً ومذبحاً .

وهي التي أقام يعقوب - عليه السلام - عندها مسجده بعد أن رأى عموداً من النور فوقها - كما سيأتي - .

وهي التي نصب عليها يوشع - عليه السلام - (قبة الزمان) أو (خيمة الاجتماع) التي أنشأها موسى - عليه السلام - في التيه .

وهي التي بنى داود - عليه السلام - عندها محرابه ، وشيّد سليمان - عليه السلام - عندها الهيكل العظيم المنسوب إليه^(١) ، وهي التي عرج النبي محمد ﷺ من فوقها إلى السماء في ليلة الإسراء . وأول من بنى فوقها مسجداً في العصر الإسلامي هو الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٧٣-٨٦هـ) (٦٨٥-٦٩١م) . وهو المسجد المعروف بمسجد الصخرة والمشهور بقبته الذهبية على المبنى المثلث ، والذي تنصرف الأذهان إلى صورته كلما ذكر اسم المسجد الأقصى ؛ مع أن المسجد الأقصى بناء آخر مستقل .

هذا . . ولا أجدني في حاجة قبل الحديث عن تاريخ بني إسرائيل في الأرض المقدسة أن أؤكد على ما لأنبياء الله من منزلة ومكانة في معتقد كل مسلم ، فالإيمان بالأنبياء - ومنهم أنبياء بني إسرائيل - ركن من أركان الإيمان ، لا يصح إيمان عبد إلاّ به .

ومما هو معلوم أيضاً عند كل ذي علم وإيمان ، أن ولاء المؤمن هو للمؤمنين في الزمان الأول والزمان الآخر ، ورابطة الإيمان لا تفصمها حواجز الأرض ولا الجنس ولا اللون ؛ ولهذا فإننا عندما نتناول الحديث عن شناعات بني إسرائيل

(١) وهو نفسه المسجد الأقصى ، كما تدل على ذلك الأحاديث الصحيحة ، وسيأتي بيانها .

الفصل الثاني

قبل رسالة الإسلام؛ فإن هذا الحديث لا يمس أبداً ولا يتناول مطلقاً جناب أتباع الأنبياء من المؤمنين، ولو كانوا من بني إسرائيل، فأنبياء بني إسرائيل نحن نحبههم، ونحب أتباعهم الذين صدقوا في إيمانهم، فالمعروف أن بني إسرائيل كان منهم مؤمنون ومنهم كفار، كما قال - تعالى -: ﴿ قَامَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ ﴾ [الصف: ١٤] فمؤمنوهم أولياؤنا، وكفارهم أعداؤنا، بل أشد أعدائنا.

ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ منهم أو من النصاري فهو من أهل النار خالداً مخلداً فيها أبداً. وقد تحدث القرآن عن مؤمني بني إسرائيل - قبل أن تحل اللعنة والغضب على كفارهم - حديثاً واضحاً - فقال تعالى: ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال: ﴿ وَمَنْ قَوْمٌ مُّوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقال: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ ﴾ [البقرة: ٤٠].

فكل هذه النصوص القرآنية تشير إلى الطوائف التي اختارت طريق الدين الصحيح مع الأنبياء، قبل أن تُنسخ شرائعهم، وقبل أن ينتقل الاصطفاء إلى أمة النبي محمد ﷺ.

وإنما أردت بهذه الإشارة الموجزة أن أنبه إلى أنه ليس من سبيل المؤمنين أن يتهجم صاحب قلم على نبي من أنبياء بني إسرائيل بسبب كراهة هذا الكاتب لبني إسرائيل أو لليهود، وليس من سبيل المؤمنين أن يُجعل كل من انتسب إلى بني إسرائيل من أتباع الأنبياء مجرمًا وسفاك دماء، وليس من سبيل المؤمنين أن يطعن

في كتب الله المقدسة التي أنزلت على أنبياء بني إسرائيل قبل أن ينالها التحريف .
فالقُرآن علمنا أن ننصف في الخصومة : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا
تَعْدِلُوا اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] .

أقول هذا بمناسبة ما وقعت عليه عند قراءاتي من عشرات المخالفات - التي
تقدح في العقيدة - يقع فيها كتاب معاصرون أثناء معالجتهم للقضايا التاريخية لبني
إسرائيل ، وجدت منهم من يسيء الأدب مع موسى - عليه السلام - ومن يتهم
يوشع بن نون - عليه السلام - بأنه همجي سفاح ، وأن داود - عليه السلام - كان
سفاك دماء ، وأن سليمان - عليه السلام - كان شهوانياً متفرغاً للملذَّة ، وأن بني
إسرائيل الذين دخلوا مع يوشع بن نون كانوا كلهم مجرمين وسفاحين .

ومع هذا الهجوم الجريء غير المتورع ، نجد كثيراً من هؤلاء الكتاب يتعسف في
الكلام عن الوثنيين الذين كانوا في الأرض المقدسة وقت أن قاتلهم يوشع ثم داود
ثم سليمان - عليهم السلام - بل والله وجدت من يدافع عن فرعون وقومه ضد
موسى وأتباعه بزعم أنهم كانوا (أجانب) عن مصر وشعبها صاحب الأرض^(١) .

وينسى هؤلاء أننا نحب موسى ولو كان إسرائيلياً لأنه من حزب الله ،
ونبغض فرعون ولو كان مصرياً لأنه من حزب الشيطان ، ونحب يوشع وداود
وسليمان وأتباعهم لأنهم كانوا موحدين مع كونهم من بني إسرائيل ، ونبغض
جالوت الفلسطيني ومن خرج معه لأنهم كانوا وثنيين .

أما بعد أن تبدل الحال ، وأنعم الله بالإسلام على من كانوا وثنيين ، وسلب

(١) اختر - بدون تسمية - مجموعة من الكتب المعاصرة الثقافة الفكرية التي تتناول الكلام عن اليهود ،
وتأمل ما في داخلها من الكلام على الأنبياء ؛ فستري عجباً ، وليس المجال متسعاً هنا لمناقشة هذه
الكتب .

الفصل الثاني

القوامة والإنعام والاصطفاء والهداية ممن كانوا على الحق والدين جزاء ما كانوا يعملون؛ فإن حبنا وبغضنا قد تبدل أيضاً حسب ما يريد ربنا وما تمليه عقيدتنا، وأحسب أن هذه القضية لا تحتاج لمزيد بيان عند كل مسلم صحيح الإيمان.

والآن.. لماذا استهدف اليهود في هذا العصر بيت المقدس بالذات، مع أن الأرض واسعة، وفي أكثرها من الثروات والكنوز ما ليس في أرض بيت المقدس، وفي أكثرها من الأمن والاستقرار لهم ما ليس في تلك البقعة المحاطة بطوفان من البشر يُكنُّون لهم كل العداء؟

لماذا هذا الحرص على تلك الأرض على الرغم من أنه قد عُرضت عليهم في بداية سعيهم لإنشاء وطن قومي لهم في العصر الحديث -أراضٍ في أماكن مختلفة من العالم؛ فأبوا إلا أرض فلسطين؟

لماذا لم يقبلوا أرض أوغندا الخصبة التي تتفجر منها منابع النيل، ولم يرضوا ولو مرحلياً بإنشاء دولتهم في الأرجنتين أو في شرق إفريقيا، أو في ليبيا أو في قبرص أو في سيناء أو في الطور أو غيرها من الأماكن التي عُرضت عليهم من قبل قوى الاستعمار في العالم^(١). لماذا إذن أرض بيت المقدس؟

إن الإجابة على هذا التساؤل تجرنا إلى أعماق التاريخ لنسأله عن الصلة التي ربطت اليهود قديماً بهذه الأرض حتى عدُّوها ملكاً لهم، وظنوها خالدة في ميراثهم. ولنقلب الصفحات التاريخية بحثاً في المراحل التي مرت بها الأرض المقدسة ومعبداتها خلال العصور المتتابعة قبل مجيء أمة بني إسرائيل وحين وجودها، وبعد نزع الأفضلية منها وذهابها إلى تيه اللعنة والغضب.

(١) انظر تفاصيل المشاريع البديلة لفلسطين، والتي عُرضت على اليهود فلم يقبلوها في كتاب (إسرائيل الكبرى - دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني) د. أسعد رزوق، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث.

أهم المراحل التاريخية التي مرت بالقدس والأقصى قبل الرسالة الخاتمة

العرب ينزلون أرض الشام:

قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة هاجرت قبائل عربية من شبه الجزيرة العربية إلى الشمال بسبب القحط، وكان أسبقهم في ذلك الفينيقيين، فأقاموا على شاطئ البحر المتوسط، وتطوروا حتى أصبحوا أصحاب حضارة، وإلى الجنوب من الفينيقيين نزلت قبائل عربية أخرى أشهرها قبائل الكنعانيين بعد خمسمائة سنة من هجرة الفينيقيين - أي قبل الميلاد بألفين وخمسمائة عام - واستقرت قبائل الكنعانيين على ضفة نهر الأردن الغربية مُنسابة نحو البحر المتوسط، وسُميت هذه الأرض باسم (أرض كنعان) وهو اسم يكثر وروده في التوراة.

وقبل الميلاد بمئات السنين نزلت بالساحل المطل على البحر المتوسط في يافا وغزة قبائل من جزيرة (كريت) تسمى قبائل (فلسطين). وتم اختلاط بين الكنعانيين والمهاجرين الجدد من (كريت)، وتمازجوا وشكلوا خليطاً يغلب عليه الدم العربي، وعاشوا في تلك المنطقة التي سميت (فلسطين).

وفي الشمال الشرقي لنهر الأردن كانت تعيش قبائل (الآراميين) الوافدة من حوض نهر الفرات بعد ازدحام هذا الحوض بالوافدين من جزيرة العرب، وهم المعروفون في الكتب المقدسة باسم (السوريين) وكانت عاصمتهم دمشق، وإلى جنوب البحر الميت كانت تسكن مجموعة أخرى من الآراميين في ثلاث ممالك (عمون - موآب - أدوم).

إبراهيم عليه السلام والمرحلة المبكرة للمسجد:

في تلك العصور التي ذُكرت، عاش إبراهيم - عليه السلام - وكان من الساميين^(١) الذين سكنوا العراق؛ إذ كان الساميون يقطنون أواسط وشمال أرض العرب، وإليهم ينتسب الآشوريون والعرب.

عاش إبراهيم - عليه السلام - في العراق التي وُلد بها، ثم بعد اختلافه مع أبيه وقومه واعتزالهم، هاجر إلى أرض كنعان ماراً بمنطقة الآراميين، وهذا المرور أو العبور هو الذي سُمي بنو إسرائيل من أجله بالعبرانيين، فهم عبرانيون لأنهم عبروا نهر الفرات إلى أرض الشام. وكانت هذه المرحلة في العام الألفين قبل الميلاد، ومنذ ذلك التاريخ استقر العبرانيون في أرض كنعان؛ ولكنهم كانوا في وضع منعزل عن بقية الشعوب هناك لابتعادها عن الدين الصحيح.

ظل إبراهيم - عليه السلام - مدة في أرض الشام، ثم نزل إلى مصر بعد قحط دبَّ في بلاد كنعان، ولم يطل بقاءه في مصر؛ إذ طمع فرعونها في زوجته سارة، وكانت المدة التي نزل فيها مصر معاصرة لزمان حكم الهكسوس، كما ذكر ذلك المؤرخون^(٢).

ثم عاد إبراهيم - عليه السلام - إلى أرض كنعان خارجاً من مصر بعد أن نجى الله زوجته سارة من فرعونها الذي أهدى لسارة جاريةً هي (هاجر)، تلك

(١) نسبة إلى سام ابن نوح - عليه السلام -، وقد كان لنوح ثلاثة أبناء ذكور، منهم نشأت أم الأرض بعد الطوفان، وهم (سام وحام ويافت). والعرب وبنو إسرائيل ينحدرون من نسل سام، فهم ساميون.

(٢) يذكر بعض المؤرخين أن الهكسوس كانوا من بدو الجزيرة العربية نزلوا مصر بعد مجاعة وقعت في بلادهم، ثم تمكنوا فيها حتى سادوا وحكموا.

الشريفة التي كانت قد وقعت في السبي وتملكها فرعون مصر في ذلك الزمان . غير أن (سارة) بدورها أهدت (هاجر) إلى إبراهيم - عليه السلام - . فاتخذها سرية ، ورزقه الله منها إسماعيل - عليه السلام - فكان ولده البكر . ثم نقل إبراهيم - عليه السلام - هاجر وولدها إلى أرض أخرى هي مكة في جزيرة العرب ، وقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] . وكان إبراهيم يزور ذريته في مكة بين وقت وآخر .

وشبَّ إسماعيل - عليه السلام - في مكة وتزوج من قبيلة جرهم العربية التي كان زعماءها سادة مكة ، ومن نسله - عليه السلام - جاءت العرب المستعربة ، وتم بناء الكعبة المشرفة في مكة على يد إبراهيم وولده إسماعيل - عليهما السلام - كما حكى القرآن .

ظل إبراهيم - عليه السلام - مقيماً في أرض كنعان بعد بناء الكعبة ، وأصبحت هذه البقعة من أرض الشام مهجراً له بعد أن نشأت له - عليه السلام - فيها الذرية الطيبة^(١) .

واتخذ فيها مكاناً يعبد الله فيه ، وكان هذا المكان يمثل المرحلة المبكرة جداً لتقديس هذه البقعة واتخاذها مكاناً للعبادة .

قال ابن تيمية - رحمه الله - :

«المسجد الأقصى كان من عهد إبراهيم - عليه السلام - ، لكن سليمان - عليه السلام - بناه بناءً عظيماً»^(٢) .

(١) انظر البداية والنهاية ، (١ / ١٤١ - ١٤٥) . وانظر (موسوعة التاريخ الإسلامي) ، د . أحمد شلبي ج ١ .

(٢) مجموع الفتاوى ، (١٧ / ٣٥١) .

الفصل الثاني

وقال ابن كثير: «ذكر أهل الكتاب أنه (*) لما قدم الشام أوحى الله إليه إني جاعل هذه الأرض لخلّفك من بعدك، فابتنى إبراهيم مذبحاً شكراً لله على هذه النعمة، وضرب قبة شرق بيت المقدس» (١).

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: «إبراهيم - عليه السلام - لما سكن أرض كنعان (وهي بلاد فلسطين) نصب خيمة في الجبل شرقي بيت إيل، وبني هناك مذبحاً للرب، وأهل الكتاب يطلقون المذبح على المسجد؛ لأنهم يذبحون القرابين في معابدهم. ومسجد إبراهيم هذا هو الموضع الذي توخّى داود أن يضع عليه الخيمة وأن يبني عليه محرابه أو أوحى إليه بذلك، وهو الذي أوصى ابنه سليمان - عليه السلام - أن يبني عليه المسجد، أو الهيكل» (٢)، ثم قال ابن عاشور: «وقد ذكر مؤرخو العبرانيين ومنهم (يوسيفوس) أن الجبل الذي سكنه إبراهيم بأرض كنعان اسمه (نابو) وهو الجبل الذي ابتنى عليه سليمان الهيكل فيما بعد، وهو الذي به الصخرة» (٣). إذن، يفهم من هذه النصوص والنقول أن أرض المسجد الأقصى هي بعينها الأرض التي كان يسميها أهل الكتاب - قبل الإسلام - أرض الهيكل، والجبل نفسه الذي يسميه أهل الكتاب - قديماً وحديثاً - (جبل الهيكل) هو ذاته الجبل الذي يقوم عليه المسجد الأقصى وهو الجبل المسمى: جبل (نابو) أو (نيبو).

القدس والمسجد الأقصى في عهد إسحاق ويعقوب عليهما السلام:

ولد إسحاق لإبراهيم - عليه السلام - من سارة بعد إسماعيل بأربع عشرة

(*) أنه: أي إبراهيم - عليه السلام -.

(١) البداية والنهاية، (١/١٤٢).

(٢) التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، (١٥/١٦).

(٣) نفس المصدر، (١٥/١٧).

سنة، وكان ذلك في أرض كنعان، وجعل الله - تعالى - كُلاً من إسماعيل وإسحاق - عليهما السلام - من الأنبياء، وتزوج إسحاق - عليه السلام - وولد له ولدان هما (يعقوب) و(عيسو)، وكانت النبوة في نسل يعقوب دون عيسو. ويعقوب - عليه السلام - هو (إسرائيل)، وهو الذي انتسبت إليه (بنو إسرائيل)؛ لأن النبوة لم تخرج من بعده إلا من عقبه.

تزوج يعقوب بنتي خاله (ليئة) و(راحيل)، وأهدته كل واحدة منهما جارية، أهدته (ليئة): (زلقة)، وأهدته (راحيل): (بلهة)، وولد له منهن جميعاً اثنا عشر ولداً، وهم أسباط بني إسرائيل الذين ظلت فيهم النبوة حتى مجيء عيسى بن مريم - عليه السلام -. وهؤلاء الاثنا عشر هم: من زوجته ليئة: (رويين - شمعون - لاوي^(١) - يساكر - زبولون - يهوذا)، ومن زوجته الأخرى راحيل: (يوسف وبنيامين)، ومن جاريته زلفة: (جاد وأشير)، ومن بلهة: (دان ونفتالي).

وفي عهد يعقوب - عليه السلام - أعيد بناء المسجد الذي كان إبراهيم - عليه السلام - قد اتخذته قبة يتعبد فيها؛ وذلك أنه كان قد حدث شيء من الخلاف بين ولدي إسحاق: (يعقوب وعيسو)، وتوعد عيسو أخاه يعقوب بالأذى؛ في قصة ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية^(٢): «فأمرت زوجة إسحاق ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها (لابان) الذي بأرض حران، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه، وأن يتزوج من بناته. . فخرج يعقوب - عليه السلام - من عندهم من آخر ذلك اليوم، فأدركه المساء في موضع فنام فيه فأخذ حجراً فوضعه تحت رأسه ونام، فرأى في نومه^(٣) ذلك معراجاً منصوباً من السماء إلى الأرض، وإذا

(١) ومن نسله موسى عليه السلام.

(٢) البداية والنهاية (١/ ١٨١)، والقصة موجودة في التوراة - سفر التكوين - الإصحاح ٢٧.

(٣) ورؤيا الأنبياء حق. والمعراج: هو ما يصعد عليه ويرتقى به.

الفصل الثاني

الملائكة يصعدون فيه وينزلون . . . فلما هب من نومه فرح بما رأى ، ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالماً ليبين في هذا الموضع معبداً لله - عز وجل - ، وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عُشره ، ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دُهنًا يتعرفه به ، وسمي ذلك الموضع (بيت إيل) أي بيت الله ، وهو موضع بيت المقدس اليوم ، الذي بناه يعقوب - عليه السلام - بعد ذلك»^(١) .

ويذكر ابن كثير أن يعقوب - عليه السلام - لما عاد من رحلته التي أمرته بها أمه ، وكان الله - تعالى - قد فتح عليه بمال وثروة عظيمة - مر على قرية أورشليم - قرية شخيم - فنزل قبل القرية واشترى مزرعة كبيرة بمائة نعجة ، فضرب هنالك فسطاطه وابتنى ثم مذبحاً فسماه : (إيل إله إسرائيل) ، وأمره الله ببنائه ليستعلن له فيه ، ثم قال ابن كثير : «وهو بيت المقدس الذي جدّه بعد ذلك سليمان بن داود - عليهما السلام - وهو مكان الصخرة التي أعلمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك كما ذكرنا»^(٢) .

القدس والمسجد الأقصى في عهد موسى عليه السلام:

تعاقت السنين ومرت القرون ، ومكان (بيت إيل) مقدس لدى المؤمنين من بني إسرائيل ، ولما دخل بنو إسرائيل مصر في زمن يوسف - عليه السلام - ثم خرجوا منها في عهد موسى - عليه السلام - سنة ١٣٥٠ ق . م ، بدأت مرحلة جديدة من تعلق بني إسرائيل بالأرض المقدسة ، إذ إنهم خرجوا من مصر في الأساس لكي يعودوا إلى أرض بيت المقدس بعد أن يجاهدوا الوثنيين الذين استوطنوها .

ولكن بدرت من بني إسرائيل المخالفات تلو المخالفات ، ونكلوا عن جهاد

(١) البداية والنهاية ، (١/ ١٨٢) .

(٢) نفس المصدر ، (١/ ١٨٤) .

أعدائهم الوثنيين حتى عوقبوا بالتيه . ولقد فصل لنا القرآن من هذه الأحداث ما فيه العبر والدروس : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٠ - ٢٦] .

وظل بنو إسرائيل في التيه في صحراء سيناء مدة أربعين سنة محرومين من الدخول إلى أرض بيت المقدس تأديباً لهم ، وفي تلك المدة حدثت أمور عجيبة ، وخوارق كثيرة - كما يقول الإمام ابن كثير - من تظليلهم بالغمم وإنزال المن والسلوى عليهم ، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تُحْمَلُ معهم على دابة ، فإذا ضربها موسى - عليه السلام - بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عينا تجري لكل شعب منهم عين . وهناك في التيه نزلت التوراة ، وشرعت لهم الأحكام ، وعُملت (قبة العهد) . ويقال لها (قبة الزمان)^(١) أو (خيمة الاجتماع) .

(١) تفسير ابن كثير ، (٢ / ٤٠) ، وانظر الوصف المفصل لهذه القبة في البداية والنهاية (١ / ٣٠٧ ، ٣٠٨) . وأيضاً التوراة ، سفر الخروج ، إصحاح ٣٦ .
ويحسن التنبيه هنا ، إلى أن اليهود المعاصرين ، أعادوا صناعة هذه القبة تمهيداً لنقل التابوت إليها ، وهو الموجود الآن - كما يقولون - في أثيوبيا ! ، انظر تفاصيل ذلك في كتاب (حُمَّى سنة ٢٠٠٠) للمؤلف ، (٢٨٦ ، ٢٨٧) .

الفصل الثاني

هذه القبة هي التي وُضع فيها (تابوت الشهادة) المذكور في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. قال ابن كثير: «وهذا التابوت كان بنو إسرائيل يستنصرون به على الأعداء بعد ذلك^(١)، وفي التيه توفي هارون - عليه السلام -، ثم بعده بمدة ثلاث سنين توفي موسى عليه السلام»^(٢).

وكان موسى - عليه السلام - قد طلب من الله - تعالى - أن يقبضه قريباً من الأرض المقدسة، فأجابه إلى ذلك، ومات قريباً منها بقدر رمية حجر كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «أُرسل ملك الموت إلى موسى - عليهما السلام -، فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه فقال: أُرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. فرد الله عليه عينه وقال: ارجع، فقل له يضع يده على متن ثور، فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنة. قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن. فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر»، قال: قال رسول الله ﷺ: «فلو كنتُ ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر»^(٣).

القدس والمسجد الأقصى في عهد يوشع بن نون عليه السلام:

أقام يوشع بن نون - عليه السلام - نبياً في بني إسرائيل بعد موسى - عليه السلام - ويوشع هو فتى موسى المذكور في سورة الكهف، ونبوته ثابتة بالسنة

(١) في التوراة - سفر الخروج، الإصحاح السابع والعشرين - وصف تفصيلي مطول لهذا التابوت.

(٢) تفسير ابن كثير، (٢/٤٠).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، ح (١٣٣٩)، وأحاديث الأنبياء، ح (٣٤٠٧)، وأخرجه مسلم في الفضائل، ح (١٥٧، ١٥٨).

الصحيحة . وعندما مات موسى - عليه السلام - كانت مدة التيه لم تنته بعد ، ومات أكثر بني إسرائيل في تلك المدة ، فلما انقضت خرج يوشع بن نون بمن بقي من بني إسرائيل الذين دخلوا التيه ، وبسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني ، فقصد بهم بيت المقدس ، فحاصرها فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر . يقول ابن كثير : « فلما تضيفت الشمس للغروب وخشي دخول السبت عليهم ، وكان القتال محرماً عليهم فيه ، قال : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها عليّ . فحبسها الله - تعالى - حتى فتحها ، وأمر يوشع بن نون أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سُجداً وهم يقولون (حطة) . أي حط عنا ذنوبنا ، فبدلوا - ما أمروا به ، ودخلوا يزحفون على إستاهم وهم يقولون (حنطة) »^(١) .

فيوشع بن نون هو الذي دخل ببني إسرائيل بيت المقدس بعد أن حُرِّموا من دخولها في عهد موسى وهارون - عليهما السلام - ولما استقرت يده على بيت المقدس نصب القبة على صخرة بيت المقدس ، فكانوا يُصلُّون إليها ، فلما بادت صلوا إلى محلتها وهي الصخرة ، فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعد إلى زمان رسول الله ﷺ ، وقد صلَّى إليها - عليه الصلاة والسلام - قبل الهجرة ، وكان يجعل الكعبة بين يديه ، فلما هاجر أُمر بالصلاة إلى بيت المقدس ، فصلَّى إليها ستة عشر ، وقيل سبعة عشر شهراً . ثم حُولت القبلة إلى الكعبة في شعبان سنة اثنتين في وقت صلاة العصر ، وقيل الظهر »^(٢) .

القدس والأقصى بعد زمان يوشع بن نون عليه السلام:

ينقسم تاريخ بقاء بني إسرائيل في أرض فلسطين بعد دخولهم زمن يوشع

(١ ، ٢) تفسير ابن كثير ، (٢ / ٤٠) ، والحديث الذي أشار إليه ابن كثير - في البخاري ، في تفسير سورة البقرة (٢ / ٥) .

إلى ثلاثة أقسام :

الأول : عهد القضاة : وهو العهد الذي كان يحكمهم فيه القضاة من اثني عشر سبطاً ، واستمر هذا العهد حوالي ٤٠٠ سنة - ويذهب البعض إلى أنه أقل من ذلك - وبدأ بنو إسرائيل في هذا العهد ينتقلون من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار ، واستقرت عقائدهم فيه .

الثاني : عهد الملوك : بعد أن عجز القضاة عن تسيير أمور بني إسرائيل ، وبعد أن ضعفت شوكتهم فاجتاح العمالقة أرضهم^(١) عمد الشعب الإسرائيلي إلى نبي لهم هو (صموئيل) ، فقالوا له : نصّب علينا ملكاً نستطيع معه أن ندفع العمالقة عن أرضنا ، فكانت القصة التي حكاها القرآن : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ اأَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنَاقِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾ [البقرة : ٢٤٦ - ٢٥١] . وقد استجاب لهم النبي ، وملّك عليهم طالوت ، وكان داود - عليه السلام - أحد رجاله ، وبرز في الجيش المعادي الفلسطيني (جليات) أو (جالوت) كما سماه القرآن ، فبارزه داود - عليه السلام - وتغلب عليه ، وتهيأ بعد ذلك الأمر لداود ، وأصبح هو الملك الثاني ، وبقي الملك وراثياً في عقبه . وفتح داود - عليه السلام - (أورشليم) أو (أورسالم) أي مدينة السلام .

العهد الثالث : عهد التفكك ، وزوال الشوكة ، وانقسام المملكة ، وسيأتي الكلام عنه في عهد سليمان - عليه السلام - .

(١) العمالقة : هم الفلسطينيون يومئذ ، ولم يكونوا على دين صحيح حينذاك .